استقامة الإمام أحمد بن حنبل[1] وكرمه

لابن حبان البستي[2]

حكى ابن حبان البستي عن إسحاق بن أحمد القطان البغدادي بتستر.

قال: كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء. كان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم. فقال لي: دخلت يومًا على أحمد بن حنبل فاذا هو مغموم مكروب، فقلت: ما لك يا أبا عبد الله؟ قال: خير! قلت: ومع الخير؟ قال: امتحنت بتلك المحنة حتى ضربت ثم عالجوني وبرأت، إلاّ أنه بقي في صلبي موضع يوجعني، هو أشد عليّ من ذلك الضرب، قال: قلت اكشف لي عن صلبك، فكشف لي فلم أرَ فيه الاّ أثر الضرب فقط، فقلت: ليس لي بذي معرفة، ولكن سأستخبر عن هذا، قال: فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس، وكان بيني وبينه فضل معرفة، فقلت له: أدخل الحبس في حاجة، قال: أدخل، فدخلت وجمعت فتيانهم. وكان معي دريهمات فرقتها عليهم، وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بي. ثم قلت: من منكم ضرب أكثر؟. قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضربًا وأشدهم صبرًا، قال: فقلت له: أسألك عن شيء، قال: هات. فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم، وضرب على الجوع للقتل سياطًا يسيرة. الاّ أنه لم يمت، وعالجوه وبرأ، الاّ أن موضعًا في صلبه يوجعه وجعًا ليس له عليه صبر. قال: فضحك، فقلت: مالك؟، قال الذي عالجه كان حائكًا، قلت: أيش الخبر؟، قال: ترك في صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها، قلت: فما الحيلة؟ قال: يبطّ(٣) صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها. وإن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته قال: فخرجت من الحبس فدخلت على أحمد بن حنبل فوجدته على حالته، فقصصت عليه القصة، قال: ومن يبطه؟، قلت أنا، قال: أو تفعل؟، قلت: نعم، قال فقام ودخل البيت ثم خرج وبيده مخدّتان وعلى كتفه فوطة(٤)، فوضع إحداهما لي والأخرى له، ثم قعد عليها وقال: استخر الله فكشفت الفوطة عن صلبه وقلت: أرني موضع الوجع، قال: ضع أصبعك عليه فاني أخبرك به، فوضعت أصبعي وقلت: ههنا موضع الوجع؟ قال: ههنا أحمد الله على العافية، فقلت، ههنا؟ قال، ههنا أحمد الله على العافية، فقلت ههنا؟ قال ههنا أسأل الله العافية، قال فعلمت انه موضع الوجع قال: فوضعت المبضع(٥) عليه فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول: اللهم اغفر للمعتصم، حتى بططته، فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشددت العصابة(٦) عليه، وهو لا يزيد على قوله: اللهم اغفر للمعتصم، قال: ثم هدأ وسكن ثم قال: كأني كنت معلقًا فأحدرت، قلت، يا أبا عبد الله إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم، قال إني فكرت فيما تقول، وهو ابن عم رسول الله ﷺ، فكرهت أن آتي يوم القيامة وبيني وبين أحد من قرابته خصومة، وهو منّي في حلّ.

وكان آية من آيات الله في الزهد والقناعة والتوكل، والورع، والتواضع، والعزوف عن أموال السلطان، ومكارم الأخلاق، امتحن في الله، وفي الدفاع عن السنة والعقيدة الصحيحة في فتنة الاعتزال أيام المعتصم، وعذب عذابا لم يعذّبه إلا أفراد قلائل، فصبر صبر الأبطال، وثبت ثبات الجبال، ثم امتحن بالصلات والعطايا، والإجلال والتكريم أيام المتوكل، فاستقام استقامة الربّانيين، والمتوكلين الزاهدين، وانتصر للسنة، وذاد عن الإسلام، حتى قال علي بن المديني أحد أئمة الحديث في عصره: «إن الله أعز هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردّة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة» وقال قتيبة: «إذا رأيت الرجل يحبّ أحمد ابن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة».

كانت وفاته سنة ٢٤١ هـ، وصلّى عليه جمع كثير، قال عبد الوهاب الوثّاق: ما بلغنا أن جمعًا في الجاهلية والإسلام مثله، ومن مؤلفاته الشهيرة مسنده.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال، الإمام أبو عبد الله الشيباني الذهلي، إمام المسلمين ومَنْ حبُّه والدفاع عنه من شعار أهل الدين. ولد في بغداد في ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ. ونشأ على الصبر والقناعة. وحفظ القرآن في صباه. واتجه إلى الحديث اتجاها كليًا. ورحل إلى بلاد كثيرة، والتقى في رحلته إلى الحجاز مع الإمام الشافعي، وأخذ عنه الفقه وأصوله، ولقيه بعد ذلك ببغداد، وعلا شأنه في الحديث وعلم الرواية، حتى بلغ مبلغ الإمامة، ورتبة الاجتهاد، فكان يحفظ ألف ألف حديث، وجلس للتدريس والفتيا، وكان إقبال الناس على مجالسه عظيمًا، وتخرج عليه كبار الأئمة مثل الإمام البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبي داود.

(٢) هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي، وهو عربي الأصل، نشأ في بست ـ مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ـ وكان مكثرًا من الحديث عن الرحلة والشيوخ، كتب عن ألف شيخ، ولي القضاء بسمرقند، ثم بنسا، قتله الخليفة بتهمة اتهم بها وهو في الثمانين من عمره، وقيل مات حتف أنفه سنة ٣٥٤ هـ. وكان عالمًا بالمتون والأسانيد، وكان وعاء من أوعية العلم في اللغة والفقه، والحديث والوعظ، عارفًا بالطب والنجوم والكلام، طبع من كتبه «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» وهذا الفصل مأخوذ منه. والقصة تدل على استقامة الإمام أحمد بن حنبل وصبره، وكرم خلقه، وحبه لرسول الله ﷺ وقرابته. وهي أنموذج طريف للغة العربية الفصحى، والتعبير البليغ الذي كان منتشرًا في القرن الثالث الهجري في بغداد قبل أن يفسده التكلف والعجمة.

(٣) بط يبط بطًا، الجرح شقه.

(٤) الفوطة، ما يأتزر به الخدم ج فوط، وعند العامة: هي طعمة تنشف بها الأيدي، وتسمى أيضا المنشفة.

(٥) المبضع: ج مباضع، وهو آلة يشق بها الجلد، وما شاكله.

(٦) العصابة: ما عصب به من منديل ونحوه، ج عصائب.